التّناص الدّيني والشعريّ في شِعر صالح بن عبد القدوس (ت ١٦٧ هـ) القصيدة "الزينبيّة" أنموذجًا

د. عامر محمود ربيع*

تاريخ تقديم البحث: ٢٠١٩/١٢/٢٠م. تاريخ قبول البحث: ٢٠٢٠/٣/١م.

ملخص

لقد انصبّ اهتمام هذا البحث على تقنية التناص الديني والشعريّ في قصيدة الشاعر صالح ابن عبد القدوس، الموسومة بـ "القصيدة الزينبيّة"، وتناول مواطن تجلياتها، وكيفية إفادة الشاعر منها، ومن ثم جاءت أفكاره ومعانيه ملبية لتجربته الشعرية والشعورية من جهة، ومحملة بالدلالات والإيحاءات ذات القدرة على اقناع المتلقي، وحمله على تغيير وجهة نظره بما يتواءم مع وجهة نظر الشاعر من جهة أخرى. وقد جاء البحث في مقدمة عرضت محاور القصيدة وأفكارها الرئيسة، والدافع لدراستها دراسة تناصية، والمنهج الذي اتبعه الباحث؛ من أجل الوصول إلى النتائج المتوخَّاة. وتمهيد تناول التناص لغة واصطلاحًا، وأهميته في الدراسات النقدية الحديثة. ودراسة تطبيقية عالجت بعض أوجه التناص في القصيدة المشار إليها؛ إذ توقفت عند التناص الديني، ممثلًا في: القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والتناص الأدبي، ممثلًا في: التناص الشعري، وإفادته ممن سبقه من الشعراء، وخُتم البحث بخاتمة دون فيها الباحث أهم النتائج التي توصل إليها. ثم أعقبها بقائمة المصادر والمراجع التي أفاد منها.

الكلمات الدالة: التناص، ابن عبد القدوس، القرآن الكريم، الحديث النبوي الشريف، الشعر العربي القديم.

* قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة جرش، الأردن.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة. الكرك، الأردن.

The Technique of Religious and Literary Intertextuality in a Poem by Poet Saleh Ibn Abdul-Qudous, Known as “the Zainabia Poem”

Dr. Amer Mahmoud Rabee’

Abstract

This research focuses on the technique of religious and literary intertextuality in a poem by poet Saleh Ibn Abdul-Qudous, known as "the Zainabia poem", and on the way the poet benefitted from it, and hence came his ideas and meanings that are inspired by his emotional and poetic experience on the one hand, and supported by indications and gestures that are capable of persuading the recipient reader or listener. It makes him change his view in a way that matches the poet's point of view on the other hand. The research came in an introduction that presented the main themes and ideas of the poem, the motive for studying it through a textual study. This is the approach followed by the researcher, in order to reach the desired results. And it paves the way for dealing with textually as a language and a term, and its importance in modern critical studies. It included an applied study with certain aspects of the textuality mentioned in the poem; it stopped at the religious textuality, represented by The Holy Qur'an, the Prophet's hadith, and the literary textuality, represented by poetic textuality, and the benefit from other poetic studies. The research concluded with statements about the main findings of the research, and a list of references and sources follows.

Keywords: Textuality, Ibn Abdul Kudous, Al Zaianabia Poem, the Holy Koran, the Sayings of the Prophet. Ancient Arab Poetry.

مقدمة:

تعد القصيدة الزينبية من القصائد التي يمكن تصنيفها ضمن المنظومات التعليمية؛ نظرًا لما تضمنتها من حكم وأمثال وخبرة وُظفت في النصح والإرشاد[١] يبدأ الشاعر قصيدته بالحديث عن صاحبته زينب، وتقطع حبال ودّها بعد صرمها (الأبيات ١-٤). ثم يتحدث – بعد ذلك – عن أيام الصِّبا التي انقضى زمنها، وحلّ محلها زمن الشيب الذي لا مفرَّ منه، ثم يأتي يوم الحساب الذي تُحصى فيه الذنوب والكبائر، فالروح وديعة لدى خالقها، والحياة متاع الغرور، ونعيمها لا محالة زائل (الأبيات ٥-١٤). ثم ينقل الحديث إلى تقديم الوعظ والنصح؛ حيث غدر الزمان، وتقلبه من حال إلى أخرى، ولزوم تقوى الله عز وجل، والعمل بطاعته، والقناعة بما يتوفر، واليأس ممّا فات، وتوقي الطمع وغدر النساء، والحذر من العدو، ووصل الكرام، واصطفاء الخليل...، وخفض الجناح لذوي القربى...، والصبر على المكروه...، والضرب في الأرض طلبًا للرزق (٥٧-١٥).

وسيعمد الباحث إلى دراسة التناص في شعر ابن عبد القدوس، متخذًا قصيدته الزينبية أنموذجًا؛ نظرًا لما تمثله من خلاصة تجربته في الحياة، واكتنازها بالحكم، ونفاسة خصائصها وفوائدها، علاوة على أنها من روائع الشعر العربي، وهذا ما حدا بالباحث إلى استكناه بعض خصائصها الأسلوبية؛ ممثلًا بما وقع فيها من التناصات التي أثرت أسلوبها الشعري الرفيع والبليغ، وهو ما لم يشر إليها باحث من قبل، متوسلًا بالمنهج الأسلوبي، الذي يُعنى بالتعالقات النصية بين النصوص الأدبية، والكشف عن جماليتها.

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة تمت الإشارة فيها إلى المحاور الرئيسة في القصيدة، والدافع إلى تناولها؛ ممثلًا في عدم وجود دراسة علمية سُبق إليها الباحث، والمنهج الذي اتخذته الدراسة؛ بغية الوصول إلى النتائج المتوخاة، وتمهيد عرض لمفهوم التناص لغة واصطلاحًا، وأهميته في الدراسات النقدية الحديثة. وأخيراً الدراسة التطبيقية التي تناولت أشكال التناص في هذه القصيدة، مقسمة إلى التناص الديني سواء أكان قرآناً كريماً أم حديثاً نبويّاً شريفاً، وإلى تناص شعري، ممثلاً في الشعر العربي القديم. وختمت الدراسة بأهم النتائج التي تمّ التوصل إليها، وقائمة المصادر والمراجع التي أفادت منها.

(١) ينظر: الناصر، مازن طلال، المنظومات التعليمية في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، منشورات شركة دار الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمّان، ط١، ٢٠١٦م، ص١٤٥.

التمهيد:

التناص لغة واصطلاحاً

التناص لغة:

يرتبط التناص بصيغته المصدرية – في المعاجم العربية – بالجذر اللغوي (نصص)، وتدور دلالاته حول: (الاتصال، والتعالق، والتشابك، والازدحام، والظهور، والرفع، والانتهاء، والغاية، والسؤال عن الشيء، وكثرة الحركة)[١] فالمعاجم العربية لم تتناول مفهوم التناص كمصطلح نقدي، كما استقر في النقد الحديث، ولعل إسناد الحديث ورفعه إلى فلان، من أقرب المعاني المتعلقة بمفهوم التناص من الناحية الاصطلاحية؛ نظراً لما يستهدفه التناص– كمصطلح نقدي– من النص وعلاقته بالنصوص الأخرى المنتجة له.

التناص اصطلاحاً (intertexuality):

أو (التناصية/ النصوصية/ تداخل النصوص/ بينصية)، وقد شاع وانتشر مصطلح (التناص) بين الدارسين والنقاد أكثر من غيره، ولكنه بقي عصياً على التعريف والحدّ على الرغم من كثرة الحديث عنه؛ بمعنى ليس ثمة تعريف جامع مانع، خلص إليه المعنيون بتعالق النصوص اللغوية، وتداخل بعضها ببعض.

ومن هنا فقد انصب اهتمامهم على النص، وما يحيط به من مرجعيات ثقافية، وفكرية، وأدبية، ودينية، وأسطورية...، سواء أكان ذلك اقتباساً، أم تلميحاً، أم إشارة؛ بحيث تندغم معاً لتكوّن نصاً جديداً.[٢] ؛ حيث "يغدو النص المتناص خلاصة لعدد من النصوص التي امّحت الحدود بينها، وكأنها حطام لمعدن ما، أو حطام لأنواع من المعادن أُعيد تشكيلها، وصياغتها تشكيلاً جديداً؛ بحيث لا يبقى بين النص الجديد، وأشلاء النصوص السابقة سوى المادة، وبعض البقع التي تشير، أو تومئ إلى

(١) ينظر: الزمخشري، أبو القاسم، محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ)، أساس البلاغة، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٧٩، مادة (نصص). ابن منظور، محمد بن مكرَّم (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، مادة (نصص). الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ)، القاموس المحيط، تحقيق، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٨، ٢٠٠٥م، مادة (نصص). الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق، عبد الكريم العزباوي، مراجعة، عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ط١، ١٩٧٩م، مادة (نصص). مجمع اللغة العربية (القاهرة) المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٤م، مادة (نصص).

(٢) ينظر: الزعبي، أحمد، التناص نظرياً وتطبيقياً، مكتبة الكتاني، إربد، ط١، ١٩٩٥م، ص٩.

النص الغائب، كأن تأخذ أشكالاً مختلفة من الزجاج المحطم، وما يقاربه ويتفاعل معه، ثم تعيد صهرها؛ لتصنع منها مادة جديدة، وأشكالاً جديدة؛ ولذلك يدخل الشعري في اللاشعري، ويتفاعل معه، ويتضامّ ويتواشج ويتعاقد ويتناسل؛ حتى يغيب الأصل غياباً لا يدركه سوى أصحاب الخبرة."[١]

فالنصوص الأدبية لا يمكن أن تنهض وحدها، دون أن يكون لها خلفيات، أو مرجعيات شتى، قديمة أو معاصرة، ومن ثم لا يمكن فهم النص الحاضر، دون استدعاء النصوص الغائبة، وشبكة العلاقات المتداخلة، والوقوف على مدى التقاطع والتصادم بين النص الحاضر، والنص الغائب؛ "لهذا فإن كل نص تأويلي، أو كل نص إبداعي، مزيج من تراكمات سابقة، بعد أن خضعت للانتقاء ثم التأليف."[٢]، وقد جعل الناقد محمد مفتاح التناص ست درجات: (التطابق، التفاعل، التداخل، التحاذي، التباعد، التعاصي)[٣]. ومهما يكن من أمر، فإن تعالق النصوص وتداخلها أمر لازب ولا مفرّ منه، وعلينا أن ننظر إلى النص المستتر بعين ثاقبة، بصفته يمثل مدخلاً مهماً في سبر أغوار النص الحاضر، واستكشاف أبعاده، والوقوف على مراميه البعيدة ودلالاته القصية.

أهمية التناص في الدراسات النقدية الحديثة:

لقد أولت الدراسات النقدية، لا سيما الحديثة منها تعالق النصوص اللغوية، وتداخلها اهتماماً خاصاً، فالأديب بصورة عامة "ليس إلا معيداً لإنتاج سابق في حدود الحرية، سواء أكان ذلك الإنتاج لنفسه أو لغيره...، ولذلك ، فإن الدراسة العلمية تفترض تدقيقاً تاريخياً لمعرفة سابق النصوص من لاحقها، كما تقتضي أن تُوازن بينها؛ لرصد صيرورتها وسيرورتها جميعاً، وأن تتجنب الاكتفاء بنص واحد، واعتباره كياناً مغلقاً على نفسه، كما أنه من المبتذل أن يقال: إن الشاعر يمتص نصوص غيره"[٤] فحسب، بل يتطلب ذلك الحفر في أعماق النص، واستنطاق مكوناته الداخلية، وشبكة العلاقات المكونة له، والتعامل معه على أساس أنه بنية لغوية متحركة، وقابلة إلى الانفتاح على كافة الأجناس الأدبية واللغوية.

(١) الموسى، خليل، التناص والإجناسية في النص الشعري، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع(٣٠٥)، أيلول، ١٩٩٦م، ص٧٨.

(٢) مفتاح، محمد، المفاهيم معالم، نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٢، ٢٠١٠م، ص٤٠.

(٣) ينظر: المرجع نفسه، ص٤٠-٤٣.

(٤) الزواهرة، ظاهر محمد، التناص في الشعر العربي المعاصر، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمّان، ط١، ٢٠٠٠م، ص٣٦.

وتتجلى قيمة التناص كمنهج تحليلي – إذا جاز القول – أو أداة مفهومية، وآلية إجرائية، في الوقوف على حقيقة التفاعل بين النصوص، وانفتاح بعضها على بعض، ورفض النظرة القاصرة إلى النص على أنه بنية لغوية مغلقة، ومن هنا فقد أصبح النص لدى جوليا كرستيفا (Julia Kristeva): "لوحة فسيفسائية من الاقتباسات، وكل نص هو تشُّرب، وتحويل لنصوص أخرى."[١] فالعلاقة بين النصوص علاقة جدلية كل يؤثر في الآخر؛ بحيث يبقى لكل نص استقلاليته وشخصيته المميزة له عن غيره. وخلاصة القول: لا يمكن فهم دلالات النصوص، وإيحاءاتها الخفية إلا من خلال العلاقة التي تجمع بين النص الحاضر والنص الغائب، واستحضار المؤثرات المحيطة بالنص الجديد، والحقول المعرفية والفكرية والأدبية التي ساهمت في انتاجه.

يقول صالح بن عبد القدوس:[٢] من [الكامل] [٣]

١- صَـرَمتِ حِبالَـكِ بَعـدَ وَصـلِكِ زَينَـبُ وَالـــدَّهرُ فيـــهِ تَغَيُّـــرٌ وَتَقَلُّـــبُ

٢- نَشَـرَتْ ذاوئِبَهـا الَّتـي تَزهـو بِهـا سُـوداً وَرَأسُـكَ كالثُّغامَـةِ[٤] أَشـيَبُ

٣- وَاِســتَنفَرَتْ لَمـــا رَأَتـــكَ وَطَالَمـــا كانَـتْ تَحِـنُّ إِلـى لُقـاكَ وَتَرغَـبُ

٤- وَكَـذاكَ وَصـلُ الغانِيـاتِ فَإِنَّـهُ آلٌ بِبَلقَعَـــةٍ وَبَـــرقٌ خُلَّـــبُ

٥- فَـدَعِ الصِّـبا فَلَقَـد عَـداكَ زَمانُـهُ وَاِزهَـدْ فَعُمـرُكَ مَـرَّ مِنْـهُ الأَطيَـبُ

٦- ذَهَـبَ الشَـبابُ فَمـا لَـهُ مِـن عَـودَةٍ وَأَتـى المَشـيبُ فَـأَينَ مِنـهُ المَهـرَبُ

(١) الغذامي، عبد الله محمد، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية – قراءة نقدية لنموذج معاصر –، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٤، ١٩٩٨م، ص٣٢٦.

(٢) هو: صالح بن عبد القدوس بن عبد الله بن عبد القدوس، الأزدي الجذامي، شاعر حكيم، ومتكلم، كان يعظ الناس في البصرة، وشعره مليء بالأمثال والحكم والآداب، أُتّهم عند الخليفة العباسي المهدي بالزندقة، فقتله ببغداد سنة (١٦٧هـ). تنظر ترجمته في: الخطيب البغدادي، أبو بكر، أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ)، تاريخ بغداد، تحقيق، بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، مج(١٠)، ص٤١٣. ابن آيبك الصفدي، صلاح الدين خليل (ت ٧٦٤هـ)، نكت الهميان في نكت العميان، وقف على طبعه، أحمد زكي بك، المطبعة الجمالية، القاهرة، ط١، ١٩١١م، ص١٧١. الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٨٦م، مج(٣)، ص١٩٢.

(٣) الخطيب، عبد الله، صالح بن عبد القدوس البصري، حياته وشعره (تأليف وجمع وتحقيق)، دار منشورات البصري، بغداد، ط١، ١٩٦٧م، ص١٢٣-١٢٧.

(٤) الثغامة: نبت أبيض الزهر والثمر.

٧- دَعْ عَنكَ ما قَد كانَ في زَمَنِ الصِّبا وَاُذكُـر ذُنوبَـكَ وَابكِهـا يـا مُـذنِبُ

٨- واذْكُـرْ مُناقَشَـةَ الحِسـابِ فَإِنَّـهُ لا بُـدَّ يُحصَـى مـا جَنَيـتَ وَيُكْتَـبُ

٩- لَـم يَنسَـهُ المَلَكـانِ حـينَ نَسـيتَهُ بَـل أَثبَتـاهُ وَأَنـتَ لاهٍ تَلعَـبُ

١٠- وَالـرُوحُ فيـكَ وَديعَـةٌ أَودَعتُهـا سَـنَرُدها بِـالرَغمِ مِنـكَ وَتُسـلَبُ

١١- وَغَـرورُ دُنيـاكَ الَّتـي تَسـعى لَهـا دارٌ حَقيقَتُهـا مَتـاعٌ يَـذهَبُ

١٢- وَاللَّيـلُ فَـاعلَمْ وَالنَّهـارُ كِلاهُمـا أَنفاسُـنا بهمـا تُعَـدُّ وَتُحسَـبُ

١٣- وَجَميـعُ مـا خَلّفْتَـهُ وَجَمَعتَـهُ حَقّـاً يَقينـاً بَعـدَ مَوتِـكَ يُنهَـبُ

١٤- تَبّـاً لِـدارٍ لا يَـدومُ نَعيمُهـا وَمَشـيدُها عَمّـا قَليـلٍ يُخـرَبُ

١٥- فَاِسـمَع هُـدِيتَ نَصـيحةً أَولاكَهـا بَـرٌ نَصـوحٌ لِلأَنـامِ مُجَـرِّبُ

١٦- صَـحِبَ الزَمـانَ وَأَهلَـهُ مُستَبصِـراً وَرَأى الأُمـورَ بِمـا تَـؤوبُ وَتَعقُـبُ

١٧- لا تَـأمَنِ الـدَهرَ الخَـؤون فَإِنَّـهُ لا زالَ قِـدماً لِلرِجـالِ يُـؤدِّبُ

١٨- وعَواقِـبُ الأيّـامِ فـي غَصَّـاتِها مَضَـضٌ يُـذَلُّ لَـهُ الأَعَـزُّ الأَنجَـبُ

١٩- فَعَلَيـكَ تَقـوى اللَـهِ فَالزَمهـا تَفُـز إِنَّ التَقِـيَّ هُـوَ البَهِـيُّ الأَهيَـبُ

٢٠- وَاِعمَـل بِطاعَتِـهِ تَنَـل مِنـهُ الرِضـا إِنَّ المُطيـعَ لَـهُ لَدَيْـهِ مُقَـرَّبُ

٢١- وَاِقنَـع فَفـي بَعـضِ القَناعَـةِ راحَـةٌ وَاليَـأسُ مِمّـا فـاتَ فَهـوَ المَطلَـبُ

٢٢- فَـإِذا طَمِعـتَ كُسـيتَ ثَـوبَ مَذَلَّـةٍ فَلَقَـد كُسِـي ثَـوبَ المَذَلَـةِ أَشـعَبُ

٢٣- وَتَـوَقَّ مِـن غَـدرِ النِسـاءِ خِيانَـةً فَجَمـيعُهُنَ مَكائِـدٌ لَـكَ تُنصَـبُ

٢٤- لا تَـأَمَنِ الأُنثـى حَياتَـكَ إِنَّهـا كَـالأُفعُوانِ يُـراعُ مِنـهُ الأَنيَـبُ

٢٥- لا تَـأَمَنِ الأُنثـى زَمانَـكَ كُلَّـهُ يَومـاً وَلَـو حَلَفَـتْ يَمينـاً تَكـذِبُ

٢٦- تُغـري بِلـينِ حَـديثِها وَكَلامِهـا وَإِذا سَطَت فَهِيَ الصَّقيلُ الأَشطَبُ[1]

٢٧- وأبـدأ عَـدُوَّكَ بِالتَّحِيَـةِ ولـتَكُن مِنـهُ زَمانَـكَ خائِفـاً تَتَرَقَّـبُ

٢٨- وَاِحـذَرهُ يَومـاً إِن لاقيتَـهُ مُتَبَسِّـماً فَاللَيـثُ يَبـدو نابُـهُ إِذ يَغضَـبُ

(١) الأشطب: الحاد القاطع.

٢٩- إنّ الحَقــــودَ وَإن تَقــــادَمَ عَهــــدَهُ فالحِقـدَ بـاقٍ فـي الصُـدورِ مُغَيّـبُ
٣٠- وَإذا الصَـــديقَ لقِيتَـــهُ مُتَمَلقـــا فهـــوَ العَـــدُوُّ وَحَقّـــهُ يُتَجَنّـــبُ
٣١- لا خَيـــرَ فـــي وُدَ اِمـــرِئٍ مُتَمَلـــقٍ حُلـــوِ اللســـانِ وَقلبُـــهُ يَتَلهَّـــبُ
٣٢- يَلقـــاكَ يَحلِـــفَ انّـــهُ بِـــكَ واثِـــقَ وَإذا تَـــوارى عَنـــكَ فهـــوَ العَقـــرَبُ
٣٣- يُعطيـكَ مِـن طـرَفِ اللسـانِ حَـلاوَةَ وَيَـروغُ مِنـكَ كمـا يَـروغُ الثعلـبُ
٣٤- وَصِـلِ الكِـرامَ وإنْ رَمَـوكَ بِجَفـوَةٍ فالصَّـفحُ عَـنْهُم بالتَجـاوُزِ اصْـوَبُ
٣٥- وَاِختَـر قرينَـكَ وَاِصـطفيهِ تَفـاخَرا إنّ القَـرينَ إلـى المُقـارَنِ يُنسَـبُ
٣٦- إنّ الغَنِـيَّ مِـنَ الرِجـالِ مُكـرَّمٌ وَتَـراهُ يُرجـى مـا لدَيـهِ وَيُرهَـبُ
٣٧- وَيَـبُشّ بِالتَرحيـبِ عِنـدَ قدومِـهِ وَيُقـامُ عِنـدَ سَـلامِهِ وَيُقَـرَّبُ
٣٨- وَالفَقـرُ شَـينٌ لِلرِجـالِ فإنّـهُ حَقّـا يَهـونُ بِـهِ الشَـريفَ الأنسَـبُ
٣٩- وَاِخفِـض جَناحَـكَ لِلأقـارِبِ كِلهِـم بِتَـذلُلٍ وَاِسـمَح لهُـم إن اذنَبـوا
٤٠- وَدَعِ الكـذوبَ فـلا يَكـن لـكَ صـاحِبا إنّ الكـذوبَ يَشـينُ حُـرّا يَصْـحَبُ
٤١- وَزِنِ الكـلامَ إذا نَطقـتَ وَلا تَكـن ثرثـارَةً فـي كـلِ نـادٍ تَخطـبُ
٤٢- وَاِحفَـظ لِسـانَكَ وَاِحتَـرِز مِـن لفظِـهِ فـالمَرءُ يَسـلمُ بِاللسـانِ وَيُعطـبُ
٤٣- وَالسِّـرَّ فاِكتَمـهُ وَلا تَنطِـق بِـهِ فهـوَ الأسـيرُ لـدَيكَ إذ لا يُنشَـبُ[1]
٤٤- وَكـذاكَ سِـرُّ المَـرءِ إن لـم يَطـوِهِ نَشَـرَتهُ السِـنَةَ تَزيـدَ وَتَكـذِبُ
٤٥- لا تَحرِصَـنَّ فـالحِرصُ لـيسَ بِزائِـدٍ في الرِّزقِ بَل يَشقى الحَريصُ وَيَتعَبُ
٤٦- وَيَظَـل مَلهوفـا يَـرومُ تَحَـيّلا وَالـرِّزقَ لـيسَ بِحيلـةٍ يُسـتَجلبُ
٤٧- كـم عـاجِزٍ فـي النّـاسِ يَـاتِيْ رِزقَـهُ رَغَـدا وَيُحـرَمُ كـيِّسٌ وَيَخيّـبُ
٤٨- وَارْعَ الأمانَـةَ وَالخيانَـةَ فاِجتَنِـب وَاِعـدِل وَلا تَظلِـم يَطـبْ لـكَ مَكسَـبُ
٤٩- وَإذا اصـابَكَ نَكبَـةٌ فاِصـبِر لهـا مَـن ذا رَايـتَ مُسـلما لا يُنكَـبُ
٥٠- وإذا رُمِيـتَ مِـنَ الزّمـانِ بِريبَـةٍ او نَالـكَ الأمْـرُ الأشَـقّ الأصْـعَبُ
٥١- فاضـرَعْ لِرَبِّـكَ إنّـهُ ادنـى لِمَـن يَـدعوهُ مِـن حَبـلِ الوَريـدِ وَاقـرَبُ
٥٢- كن ما اِستَطعتَ عَنِ الأنامِ بِمَعزِلٍ إنّ الكثيـرَ مِـنَ الـوَرى لا يُصـحَبُ
٥٣- واحـذرْ مُصـاحَبَةَ اللئـيمِ فإنّـهُ يُعدِي كما يُعْدِي الصَّحيحَ الأجرَبُ
٥٤- وَاِحـذر مِـن المَظلـومِ سَـهما صـائِبا وَاعلـم بِـانّ دَعـاءَهُ لا يُحجَـبُ

(١) لاينشب : لا يهرب

٥٥- وَإذا رَأيــتَ الــرِّزقَ عَــزَّ بِبَلــدَةٍ وَخَشـيتَ فيهـا أن يَضـيقَ المَكسَـبُ
٥٦- فارحَـل فـأرضُ اللـهِ واسِـعَة الفَضـا طــولا وَعَرضــا شَــرقها وَالمَغــرِبُ
٥٧- فلقَـد نَصَـحتكَ إن قبِلـتَ نَصـيحَتي فالنُصــحُ أغلــى مــا يُبــاعَ وَيُوهَــبُ

لدى تأمل القصيدة "الزينبية"، يمكن الوقوف على ينابيع النصوص التراثية، ومصادرها الخفية – في هذه القصيدة – من خلال حركة هذه النصوص، وما تحمله من دلالات. وسنحاول عَبر هذه القراءة الكشف عن مصادر هذه النصوص، وتداخلها مع النص الحاضر، ودورها في إعادة تشكيل معانيه الداخلية.

الدراسة التطبيقية

ولدى العودة إلى هذه المصادر الأصلية الغائبة، وتناصها وتعالقها مع القصيدة الزينبية، نجدها تتمثل في ما يلي:

أولاً: التناص الديني

ونعني به: "تداخل نصوص دينية مختارة، عن طريق الاقتباس، أو التضمين من القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، أو الخطب، أو الأخبار الدينية.... مع النص الأصلي؛ بحيث تنسجم هذه النصوص مع السياق [الجديد]، وتؤدي غرضاً فكرياً، أو فنياً، أو كليهما معاً."[١] وقد تجلى ذلك في قصيدة ابن عبد القدوس الموسومة بـ"الزينبية" وذلك على النحو الآتي:

أ- التناص القرآني:

استلهم الشاعر – في قصيدته – كثيراً من جماليات النصوص القرآنية، وضمنها في قصيدته؛ مما عزز معانيها، وقوى من مصداقية هذه المعاني. ومن ذلك قوله:

وَغَــرورُ دُنيــاكَ الَّتــي تَسـعى لَهـا دارٌ حَقيقَتُهــا مَتــاعٌ يَــذهَبُ

حيث استوحى قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ١٨٥﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فالدنيا تغرّ وتخدع، وتسوّل للنفس أنها باقية خالدة، وما هي في حقيقتها إلا فانية زائلة؛ ولذا ينبغي على المسلم أن يأخذ منها ما يعينه على طاعة الله تعالى، فما لذاتها وشهواتها وزينتها إلا متع سرعان ما

(١) الزعبي: التناص نظرياً وتطبيقياً، مرجع سابق، ص٣٧.

يضمحل ويتلاشى. ومن هنا فقد مزج الشاعر بين كلامه والقرآن الكريم؛ بغية توكيد المعنى الذي أراده. ويؤكد هذا المعنى مرة أخرى بقوله:

تَبّــاً لِــدارٍ لا يَــدومُ نَعيمُهــا وَمَشــيدُها عَمّــا قَليــلٍ يُخــرَبُ

فالهلاك والتباب يطال الدنيا وملذاتها، والموت يطوق أعناق كل من يعلي بناءها، فلا يدوم نعيمها من مأكل وملبس ومشرب، ولا يبقى على ظهرها بانٍ ومشيدٍ؛ ولهذا فلا أسف ولا ندم عليها، إلا ما يزوّد المؤمن من تقوى وخير ليوم لاينجو منه إلا من أتى الله بقلب سليم. ويلمح إلى قوله تعالى: وما ﴿ مَّا يَلفِظُ مِن قَولٍ إِلَّا لَدَيهِ رَقِيبٌ عَتِيد١٨﴾ [ق: ١٧-١٨]، وذلك في قوله:

واذْكُــرْ مُناقَشَــةَ الحِســابِ فَإِنَّــهُ لا بُــدَّ يُحصَــى مــا جَنَيــتَ وَيُكْتَــبُ

لَــم يَنسَــهُ المَلَكــانِ حــينَ نَســيتَهُ بَــل أَثْبَتَــاهُ وَأَنــتَ لاهٍ تَلعَــبُ

فالإنسان – لا شك – يعاقب ويحاسب يوم القيامة على ما اقترفت يداه في الحياة الدنيا، سواء أكانت ذنوبه صغيرة أم كبيرة، جليلة أم عظيمة، ولا ينجو من ذلك إلا من استثنى الله سبحانه وتعالى: فالملائكة الموكلة بالمرء تضبط وتحصي وتكتب ما اكتسب من قول وفعل: فالشاعر عندما أراد أن يعمق هذه المعاني في نفس المتلقي وذهنه، ويثبتها في فؤاده، لم يجد بداً من أن يضمن هذه المعاني المتوافرة في قوله تعالى السابق الذكر. فاستلهام المعنى القرآني العميق والمؤثر معاً، يجعل المعاني المستوحاة منه أشدّ تأثيراً في النفس.

ويستثمر قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقوَىٰ١٩٧﴾ [البقرة: ١٩٧]، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسلِمُونَ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وذلك في قوله:

فَعَلَيــكَ تَقــوى اللَــهِ فَالِزَمهــا تَفُــز إِنَّ التَقِــيَّ هُــوَ البَهِــيُّ الأَهيَــبُ

وَاِعمَــل بِطاعَتِــهِ تَنَــل مِنــهُ الرِضــا إِنَّ المُطيــعَ لَــهُ لَدَيْــهِ مُقَــرَّبُ

وفي ذلك حض على تقوى الله تعالى، ولزوم طاعته، ونيل رضاه؛ لأن التقوى أساس كل أمر، وفي هذا فوز بالأجر الجزيل، والثواب العظيم، فالتقي موقر لدى الناس، فضلاً عن مكانته عند ربه عز وجل، وقربه منه تعالى. واستثمار معاني هاتين الآيتين القرآنيتين وغيرهما مما دار حول هذه المعاني يتناغم أشد التناغم مع ما هو قارّ في ذهن المؤمن واعتقاده، فالمعاني التي أتى بها الشاعر ترتقي إلى درجة اليقين؛ لأنها وجدت ملاذاً قوياً في المعاني القرآنية.

ونلاحظ استدعاءه لقوله تعالى: ﴿وَٱخفِض لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرحَمهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرا٢٤﴾ [الإسراء: ٢٤]، وذلك في قوله:

وَاخفِـض جَناحَـكَ لِلأَقـارِبِ كِلِّهِـم بِتَـذَلُّلٍ وَاسـمَحْ لَهُـم إِن أَذنَبـوا

ففي الآية دعوة وحض على إلانة الجانب والخضوع للوالدين، ومعاملتهما بمنتهى الشفقة والرحمة والعطف، والدعوة لهما بالرحمة والمغفرة على تربيتهما لنا في صغرنا، ففي رضاهما رضى الله، وفي سخطهما سخط الله. وقد نقل الشاعر هذا المعنى بكل عمقه وقوته، وما يفضي إليه من إيمان كبير، واعتقاد جازم من قبل المؤمن، إلى معاملة ذوي الأرحام وصلتهم، والتأكيد على مسامحتهم إن قصروا، وعدم قطيعتهم إن أذنبوا.

ويستحضر قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأمُرُكُم أَن تُؤَدُّواْ ٱلأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهلِهَا٥٨﴾ [النساء: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُم ٢٧﴾ [الأنفال: ٢٧] وغير ذلك من الآيات التي تحض على أداء الأمانة، والعدل، وتجنب الظلم. تدعو هاتان الآيتان إلى المحافظة على الأمانة، وإحسان رعايتها، ويدخل في ذلك معاملة الإنسان مع ربه عز وجل، ونفسه التي بين جنبيه، وسائر عباد الله تعالى، وبذلك تشمل العبادات والمعاملات والأخلاق. كل ذلك يجب أن يصان وينبغي المحافظة عليه، خشية العقاب، وخوفاً من الحساب، وقريب من ذلك قول الشاعر:

وَارْعَ الأَمانَـةَ وَالخيانَـةَ فَاجتَنِـبْ وَاعـدِلْ وَلا تَظلِـمْ يَطـبْ لَـكَ مَكسَـبُ

وقد فسّر التناص موقف الشاعر ورؤيته من الأمانة والعدل والخيانة، ومن أجل أن يعضد موقفه/ ويقوّي وجهة نظره أحالنا، بطريقة التلميح والإيماء إلى مكانة هذه المبادئ وسموها، على ما ورد في كتاب الله تعالى من الآيات الدالة على عظمها وجلالها وأثر المحافظة عليها.

وعندما أراد أن يعظم أهمية الصبر ومكانته، ويكبر دوره في تحمل الشدائد، وتجاوز المصائب، وتحدي نوائب الدهر، ولا يسلم من ذلك أي إنسان، لاسيما المؤمن؛ فهو الأشد بلاءً وامتحاناً في هذه الحياة، وكذلك بيان فضل التضرع إلى الله تعالى والاستعانة به، يحيلنا إلى ما ورد في القرآن الكريم من الحض على الصبر، والإفادة من هذه المعاني القيمة، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ٱستَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصبِرُوٓاْ ١٢٨﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱستَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ١٤٦﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱستَعِينُواْ بِٱلصَّبرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ١٥٣﴾[البقرة: ١٥٣]، وقد ضمن الشاعر هذه المعاني السامية في قوله:

وإذا أصـــابَكَ نَكبَـــة فاِصـــبِرْ لهـــا مَـــن ذا رَأيـــتَ مُســـلما لا يُنكـــبُ
وإذا رُمِيـــتَ مِـــنَ الزّمـــانِ بِريبَـــةٍ أو نَالـــكَ الأمْـــرُ الأشَـــقّ الأصْـــعَبُ
فاضـــرَعْ لِرَبِّـــك إنّـــهُ ادنـــى لِمَـــن يَـــدعوهُ مِـــن حَبـــلِ الوَريـــدِ وَاقـــرَبُ

فانفتاح قوله المتقدم على الآيات القرآنية الكريمة يزيد من إقناع المتلقي بالفكرة التي يروم إيصالها، ويقوّي أيضاً من درجة قبولها لديه.

ونلحظ امتصاصه لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَولا سَدِيدا٧٠﴾ [الأحزاب: ٧٠]، وقوله تعالى: ﴿إِذ تَلَقَّونَهُۥ بِأَلسِنَتِكُم وَتَقُولُونَ بِأَفوَاهِكُم مَّا لَيسَ لَكُم بِهِۦ عِلم وَتَحسَبُونَهُۥ هَيِّنا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيم١٥﴾ [النور: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿مَّا يَلفِظُ مِن قَولٍ إِلَّا لَدَيهِ رَقِيبٌ عَتِيد١٨﴾ [ق: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلسِنَتُكُمُ ٱلكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰل وَهَٰذَا حَرَام لِّتَفتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلكَذِبَ ١١٦﴾ [النحل: ١١٦]، وذلك في قوله:

وَزِنِ الكـــلامَ إذا نَطقـــتَ وَلا تَكـــنْ ثرثـــارَةً فـــي كـــلّ نـــادٍ تَخطـــبُ
وَاِحفَـظ لِسـانَكَ وَاِحتَـرِزْ مِـن لفظِـهِ فـــالمَرءُ يَســـلمُ بِاللِســـانِ وَيُعطـــبُ

وهذه دعوة إلى حفظ اللسان، وتحذير من الكذب والغيبة والنميمة، وشهادة الزور...، وحث على قول الحق، ونهي عن المنكر، وأمر بالمعروف، وإصلاح بين الناس، فإطلاق المرء لسانه فيما لا يعنيه هلاك له ومضرة وفتنة.

ويستوحي الشاعر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ كَيدَكُنَّ عَظِيم٢٨﴾ [يوسف: ٢٨]، ثم يوظفه بكل ما يحمله من دلالات وإيحاءات واسعة، وذلك في قوله في وصف الأنثى التي رمز بها إلى الدنيا:

لا تَـــامَنِ الأنثـــى حَياتَـــك إنّهـــا كـــالأفعُوانِ يُـــراعَ مِنـــهُ الأنيَـــبُ
لا تَـــامَنِ الأنثـــى زَمانَـــك كلـــهُ يَومـــا وَلـــو حَلفـــت يَمينـــا تَكـــذِبُ
تَغـــري بِلـــينِ حَـــديثِها وَكلامِهـــا وَإذا سَـطت فهِـيَ الصّـقيل الأشـطبُ

فقد نقل معنى قوله تعالى إلى الحديث عن الدنيا، إذ يشبهها بالأفعوان، بجامع الشر والأذى، وسوء العاقبة، والنهاية الوخيمة، فهي لا تصفو لأحد، تغريه، وتمد له يد الخداع والمخاتلة؛ حتى إذا أمن فيها، واطمأن لها، انغمس في اللهو واللعب، فنسي آخرته، فإذا ما جاءه اليقين ندم غاية الندم، وتحسر على ما فاته من عمل الخير والبر. فصدى هذه الآيات ماثل في قول الشاعر، وذلك عبر الإيحاء والتلميح والتكثيف، وهذا لا شك يعضد من قول الشاعر، ويجعله أكثر تأثيراً.

ب-التناص مع الحديث النبوي الشريف:

يعد الحديث النبوي الشريف المصدر الثاني الديني بعد القرآن الكريم، الذي استلهم الشعراء القدامى والمحدثون معانيه، وضمّنوها في أشعارهم؛ إذ استطاعوا استيعاب دلالات الأحاديث وإيحاءاتها، وتوظيفها بما يخدم تجربتهم النفسية والشعرية، فالحديث الشريف شكل رافداً مهماً – بفضل فصاحته، وسمو معانيه – للشعراء قديماً وحديثاً، ومن هؤلاء الشعراء ابن عبد القدوس؛ إذ يقول:

دَعْ عَنكَ ما قد كانَ في زَمَنِ الصِّبا وَاذكُرْ ذنوبَكَ وَابْكِها يا مُذنِبُ

أي اترك ما قد فات من زمن الصبا من اللهو واللعب، وتذكر الذنوب صغيرها وكبيرها، والندم عليها، ومن ثم التوبة، والعمل الصالح وقد استوحى – في هذا البيت – قول الرسول – صلى الله عليه وسلم –: "كل بني آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوّابون"(١) .

ويضمن معنى قوله – صلى الله عليه وسلم –: "من حُوسب عذّب... مَن نُوقش الحساب يَهلك"(٢)، وذلك في قوله:

واذْكُرْ مُناقَشَةَ الحِسابِ فَإِنَّهُ لا بُدَّ يُحصَى ما جَنَيتَ وَيُكْتَبُ

وهذا مدعاة إلى الحيطة والحذر من يوم الحساب، فالمناقشة جليلة وعظيمة؛ إذ سيجد المرء كل شيء أمامه، وإن كان مثقال ذرة، إن خيراً، أو شراً.

ونلحظ قول الرسول – صلى الله عليه وسلم –: "يقول ابن آدم: مالي، مالي (قال) وهل لك، يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت؟"(٣) وذلك في قوله:

وَجَميعُ ما خَلّفْتَهُ وَجَمَعتَهُ حَقّاً يَقيناً بَعدَ مَوتِكَ يُنهَبُ

(١) ينظر: الألباني، محمد ناصر الدين: صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ط٣، ١٩٨٨م، مج١، ص٨٣١، حديث رقم (٤٥١٥).

(٢) ينظر: البخاري، أبو عبد الله، محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ): صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ص٣٩، حديث رقم (١٠٣).

(٣) ينظر: مسلم، أبو الحسين، بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، صحيح مسلم، اعتنى به، نظر محمد الفاريابي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ٢٠٠٦م، ص١٣٥٣، حديث رقم (٢٩٥٨).

فجميع ما يحصله المرء، ويجمعه من مال ومتاع، سواء أكان من حرام أم حلال، سيأخذه الورثة وغيرهم، وسيحاسب عليه وحده.

ويتناص مع قول الرسول – صلى الله عليه وسلم –: "الدين النصيحة، قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم."[١] ويظهر هذا المعنى في قوله:

فَاسمَعْ هُدِيتَ نَصيحةً أَولاكَها بَرٌ نَصوحٌ لِلأَنامِ مُجَرِّبُ
فَلَقَد نَصَحتُكَ إِن قَبِلتَ نَصيحَتي فَالنُّصحُ أَغلى ما يُباعُ وَيُوهَبُ

وفي قول الشاعر – هذا – إشارة إلى ما تقدم في الأبيات من النصائح التي أسداها لكل مستمع وقارئ؛ أي ضياع العمر واللعب واللهو، وذهاب الشباب، والحذر من مناقشة الحساب...الخ، وفي إهدائه للنصيحة إشعار بأنه يحب الخير للجميع، ويحرص على نجاتهم وفوزهم، امتثالاً لما أمر به الله عز وجل، ورسوله الكريم عليه السلام.

ويفيد من قول الرسول – صلى الله عليه وسلم –: "الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم مَن يخالل."[٢]، وذلك في قوله:

وَاختَرْ قرينَكَ وَاصطفيهِ تَفاخَرا إِنَّ القَرينَ إِلى المُقارَنِ يُنسَبُ
وَدَعِ الكَذوبَ فَلا يَكُنْ لَكَ صاحِبا إِنَّ الكَذوبَ يَشينُ حُرّا يَصْحَبُ
واحذَرْ مُصاحَبَةَ اللئيْمِ فإنّهُ يُعدِي كما يُعْدِي الصَّحيحَ الأجرَبُ

وفي ذلك حث على الصداقة، واختيار الخُلَّص والأوفياء منهم؛ لأنه يحزن لحزنك، ويفرح لفرحك، فالقرين يسوق قرينه إما إلى الهدى والرشاد، أو إلى الشرّ والهلاك، ويعدي كل منهما الآخر، ويشين أحدهما صاحبه، فإن كان أحدهما كاذباً، أو لئيماً، تطبّع الآخر بطباع صاحبه؛ وذلك يجب على المرء أن ينتقي صديقه بحذر وعناية.

ويستدعي – بإيجاز وتكثيف شديدين، وإيحاء خفي – قول النبي – صلى الله عليه وسلم –: "إن الله يقول: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإن لا تفعل ملأت يديك شغلاً، ولم أسد فقرك"[٣] وهذا ما نجده في قوله:

(١) ينظر: المصدر نفسه، ص٤٤، حديث رقم (٩٥).
(٢) ينظر: أبو عيسى، محمد بن عيسى مسورة (ت ٢٩٧هـ)، سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، تحقيق، إبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط١، ١٩٦٢م، ج٤، ص٥٩٨، حديث رقم (٢٣٧٨).
(٣) ينظر : المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ٦٤٢-٦٤٣ ، حدايث رقم (٢٤٦٦).

لا تَحرِصَــنّ فــالحِرصُ لــيسَ بِزائِــدٍ في الرِّزقِ بَل يَشقى الحَريصُ وَيَتعَبُ
وَيَظــــلَ مَلهوفــــا يَــــرومُ تَحَــــيّلا وَالــــرِّزقَ لــــيسَ بِحيلــــةٍ يُســــتَجلبُ
كَـمْ عـاجِزٍ فــي النــاسِ يَـاتِيْ رِزقَـهُ رَغَــــدا وَيُحــــرَمُ كــــيِّسٌ وَيَخيّــــبُ

فالحرص الزائد على الرزق، والمبالغة في طلبه، يشقي الحريص، ويتعبه، ولا يفيده في الحصول على أكثر مما قد قسمه الله تعالى له، وليس طلب الرزق بحاجة ماسة إلى الحيل، والذكاء، وكذلك إلى القدرة والقوة، فكم من عاجز يأتيه رزقه رغداً من حيث لا يدري، وكم من قوي وفطن وذكي يحرم، ويخيب سعيه في تحصيل رزقه، فالرزق مقدّر من لدنه عز وجلّ، وليس للمرء إلا اتخاذ أسبابه فحسب.

ويستحضر قول الرسول – صلى الله عليه وسلم –: "عن عقبة بن عامر قال: قلت يا رسول الله: ما النجاة؟ قال: أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك."[(١)]، وذلك في قوله:

كُنْ ما اِستَطَعتَ عَنِ الأَنامِ بِمَعزِلٍ إِنَّ الكَثيـرَ مِـنَ الـوَرى لا يُصـحَبُ

ولعل في ذلك فرار المسلم بدينه، عندما تكون الفتن كقطع الليل المظلم؛ حتى يأذن الله تعالى بزوال الغُمَم، وانكشاف الظُّلَم، وحين ذلك يكون اختلاط المسلم بالتائهين لا جدوى منه، ولا فائدة فيه، فالعزلة مرهونة بتجدد فرص الأمل، وانزياح الظلمة، وتوافر الأقران الصالحين.

ويفيد من قول الرسول – صلى الله عليه وسلم –: "ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن، دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده"[(٢)]، وذلك في قوله:

وَاِحـذَرْ مِـن المَظلـومِ سَـهماً صـائِباً وَاعلَــمْ بِــأَنَّ دُعــاءَهُ لا يُحجَــبُ

فدعوة المظلوم قاتلة، ليس بينها وبين الله حجاب، إذا أصابت الظالم تزلزل أركانه وعروشه، والظالم تصيبه دعوة المظلوم في الدنيا والآخرة معاً، فتجعله عبرة لمن اعتبر، ولذلك نهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن الظلم، وحرمه الله تعالى على نفسه، وفيما بين الناس كذلك.

ونلحظ تناصه – إيحاءً لا تصريحاً – مع قوله – صلى الله عليه وسلم –: "قد أفلح من أسلم، ورُزق كِفافاً، وقنَّعه الله مما آتاه."[(٣)]، وذلك في قوله:

(١) ينظر: أبو عيسى، الجامع الصحيح، مصدر سابق، ج٤، ص٦٠٥، حديث رقم (٢٤٠٦).
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ج٤، ص٣١٤، حديث رقم (١٩٠٥).
(٣) ينظر: مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، ص٤٦، حديث رقم (١٠٥٤).

وَاِقنَــعْ فَفــي بَعــضِ القَناعَــةِ راحَــةٌ وَاليَــأسُ مِمّــا فــاتَ فَهــوَ المَطلَــبُ

فَــإِذا طَمِعــتَ كُســيتَ ثَــوبَ مَذَلَّــةٍ فَلَقَــد كُسِــي ثَــوبَ المَذَلَــةِ أَشــعَبُ

وفي ذلك رضى بما قسم الله تعالى لعبده منذ أن نفخ فيه الروح، ففيه راحة بال، وهدوء نفس، فلا ينال الرزق بالكد والتعب فحسب، بل بالتوكل على الله، ولكن يستحب السعي والطلب.

ونلحظ أنه أفاد من قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – في حديث الاستعاذة من الفقر ولقلة؛ حيث يقول: "تعوّذوا بالله من الفقر، ومن القلة والذلة..."[١] وذلك في قوله:

وَالفَقــرُ شَــينٌ لِلرِجــالِ فَإِنَّــهُ حَقّــاً يَهــونُ بِــهِ الشَّــريفُ الأَنسَــبُ

فالفقر قبيح وشين للرجل، يزري به، ويؤدي إلى خسته، ويكاد يصل به إلى الكفر؛ ولهذا أُمرنا أن نستعيذ منه، والتغلب عليه بالعمل وطلب الرزق ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

ويتضح مما سبق أن الشاعر ابن عبد القدوس قد تأثر بالحديث الشريف في بناء معانيه، وجمله الشعرية، وأعاد تشكيل بعض جمل هذه النصوص الغائبة في صور جديدة تتناغم مع أفكاره التي يروم إيصالها إلى المتلقي؛ لما لهذه الجمل من قوة تأثير في السامع والقارئ على حدّ سواء؛ وذلك لفصاحة الأحاديث النبوية الشريفة وبلاغتها من جهة، ولصلة المتلقين المتينة مع هذه الأحاديث من جهة أخرى. ومن ثم تقوّي فاعلية النصوص الحاضرة، وتزيد جمالها في وجدناهم.

ثانياً: التناص مع الشعر القديم

يعد الشاعر صالح بن عبد القدوس – شأنه شأن غيره – من الشعراء الذين استوحوا معاني وصور وأساليب الشعراء الذين سبقوه أو عاصروه وصورهم وأساليبهم، وهذا يدل على مدى ارتباطه بغيره من الشعراء سواء أكان ذلك حفظاً أم قراءة أم استيعاباً، فتقاطعه مع شعراء آخرين – عن طريق الاقتباس، أو التضمين – أمر بَدهِي، ويمنح النص الجديد ثراءً يسهم في نأيه عن المباشرة والخطابية. وقد تبدى ذلك التناص في قصيدة الشاعر في غير موضع. ومن ذلك قوله:

صَـرَمتِ حِبالَـكِ بَعـدَ وَصـلِكِ زَينَـبُ وَالــدَّهرُ فيــهِ تَغَيُّــرٌ وَتَقَلُّــبُ

(١) ينظر: النسائي، أبو عبد الرحمن بن شعيب (ت ٣٠٣هـ)، سنن النسائي (المجتبى)، خرج أحاديثه وعلق عليه: عماد الطيار وآخرون، مؤسسة الرسالة: ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠١٤م، ص٥٤٦٦، حديث رقم (٥٤٦٣).

وزينب ليست امرأة حقيقية أو متوهمة يوجه الشاعر حديثه إليها، بل هي رمز للدنيا كما تفيد معاني القصيدة، فهو يشبهها بالدنيا، فالدنيا كالمرأة تتسم بالتغير والتقلب، وطالبها أو عاشقها غالباً ما يبوء بالحسرة والندامة. وافتتاح الشعراء بالحديث عن صرم المحبوبة وبينهما معهود لدى كثير من الشعراء. ومن ذلك – مثلاً – قول متمِّم بن نُويرة من [الطويل]:(١)

صَـرَمَتْ زُنَيْبَـةُ حَبْـلَ مَـن لا يَقْطَـعُ حَبْـــلَ الخَليـــلِ ولَلأَمانَـــةِ تَفْجَـــعُ

وكذلك قول كعب بن زهير، حيث يقول من [البسيط]:(٢)

بانَــت سُــعادُ فَقَلبــي اليَــومَ مَتبــولُ مُتَــيَّمٌ إِثرَهــا لَــم يُفــدَ مَكبــولُ

ونلحظ في قوله:

نَشَــرَتْ ذاوئِبَهــا الّتــي تَزهــو بِهــا سُــوداً وَرَأسُــكَ كالثَّغامَــةِ أشــيَبُ
وَاِســتَنفَرَتْ لَمــا رَأَتــكَ وَطَالَمــا كانَــتْ تَحِــنُّ إِلــى لُقــاكَ وَتَرغَــبُ
وَكَــذاكَ وَصــلُ الغانِيــاتِ فَإِنَّــهُ آلٌ بِبَلقَعَــــةٍ وَبَــــرقٌ خُلَّــــبُ

الإحالة غير المباشرة إلى غير شاعر جاهلي تناول الشيب وصدّ الغانيات عنه بسبب ذلك فعلى سبيل المثال نرى امرأ القيس يقول قريباً من ذلك من [الطويل]:(٣)

أَراهُــنَّ لا يُحبِــبنَ مَــن قَــلَّ مالُــهُ وَلا مَــن رَأَيــنَ الشَــيبَ فيــهِ وَقَوَّســا

وقول علقمة الفحل من [الطويل]:(٤)

إِذا شــابَ رَأسُ المَــرءِ أَو قَــلَّ مالُــهُ فَلَــيسَ لَــهُ مِــن وُدِّهِــنَّ نَصــيبُ

(١) ينظر: المفضل الضبي، محمد بن يعلى (ت ١٧٨هـ)، المفضليات، شرح وتحقيق، أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط٦، (د.ت)، ص٤٨.

(٢) ابن زهير، كعب (ت ٢٦هـ)، ديوانه، تحقيق، درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٢٣.

(٣) امرؤ القيس، ديوانه، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٤، (د.ت)، ص١٠٧.

(٤) علقة الفحل، ديوانه، شرح، السيد أحمد صقر، المطبعة المحمودية، القاهرة، ط١، ١٩٣٥م، ص١١.

وكذلك قول الأسود بن يعفر النهشلي من [الطويل]:(١)

وأحكمــهُ شـيبُ القَـذالِ عـن الصِّـبا فكيـف تَصـابيهِ وقـدْ صَـارَ أَشـيَبا

فالغواني يرغبن في الشباب، ويهوين حديث السِّن، ويصدنَّ عن المشيب، ولا يرغبن في كِبَرِ سنه، وكذلك في من قلّ ماله، وانحنى ظهره، فما إن يرين الشيب، والهرم والفقر، حتى ينفرن بعيداً، ويستبدلن القرب والود والوصال بالبعد والفراق والنفور.

ونلحظ في قوله:

فَــدَعِ الصِّــبا فَلَقَــد عَــداكَ زَمانُــهُ وَازِهَــدْ فَعُمــرُكَ مَــرَّ مِنْــهُ الأَطيَــبُ

ذَهَـبَ الشَّـبابُ فَمـا لَـهُ مِـن عَـودَةٍ وَأَتــى المَشـيبُ فَـأَينَ مِنــهُ المَهـرَبُ

إشارة إلى قول عدي بن زيد من [الكامل]:(٢)

نَــزَلَ المشــيبُ بِوَفــدِهِ لا مَرحَبَــا ورَأَى الشَّــبابُ مَكَانَــهُ فَتَجَّنبَــا

وقوله كذلك من [الكامل]:(٣)

بَــانَ الشَــبابُ فَمــا لَــهُ مَــردودُ وعلــيَّ مِــن سِــمَةِ الكَبيــرِ شُــهودُ

لَـيْسَ الشَّـبَابُ وَإِنْ جَزِعْـتَ بِرَاجِـعٍ أَبَــدًا وَلَــيْسَ لَــهُ عَلَيْــكَ مُعِيــدُ

وقول سلامة بن جندل السعدي من [البسيط]:(٤)

أَوْدَى الشَّـبابُ الَّـذِي مَجْـدٌ عَوَاقِبُـهُ فيــهِ نَلَــذُّ، ولا لَــذَّاتِ لِلشِّــيبِ

(١) الأسود بن يعفر، ديوانه، صنعه، نوري حمودي القيسي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، (د.ط)، (د.ت)، ص٢٠.

(٢) عدي بن زيد العبادي، ديوانه، تحقيق، محمد جبار المعيبد، وزارة الثقافة والإرشاد، بغداد، ط١، ١٩٦٥م، ص١١٣.

(٣) المصدر نفسه، ص١٢٣.

(٤) سلامة بن جندل، ديوانه، تحقيق، فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م، ص

فالتحسر الشديد على أيام الشباب المنصرم إحساس عام يحسه كل الناس، ولا سيما الشعراء، كما أنهم يشعرون بالعجز القوي حيال الضيف القادم (المشيب) الذي لا يمكن دفع غوائله، ومقاومة مقدمه، ولهذا نجدهم يحسون بالأسى والحزن الشديدين حالما يشعرون بتسرب الشباب، وانقضاء عهد الفتوة والقوة. فلا الشباب براجع، ولا فترة العجز والضعف. يمكن التغلب عليها، أو دفعها.

ويستوحي في قوله:

وَالــرُوحُ فيــكَ وَديعَــةٌ أَودَعتُهــا سَــنَزُّدها بِــالرَّغمِ مِنــكَ وَتُســلَبُ

قول لبيد بن ربيعة العامري من [الطويل]:(١)

ومَــا المــالُ والأهْلُــونَ إلاَّ وَديعَــةٌ وَلابُــدَّ يَوْمــاً أنْ تُــرَدَّ الوَدائِــعُ

فالروح سر من الأسرار الإلهية، وهي أمر من الله تعالى، أودعها في جسد الإنسان لحين ما، ثم يقبضها ملك الموت بإذن الله عز وجل، فما أن يموت المرء؛ حتى تعود الروح إلى باريها.

ويلاحظ أن الشاعر يلتقط قوله:

لا تَــأمَنِ الــدَّهرَ الخَــؤون فَإِنَّــهُ لا زالَ قِــدماً لِلرِجــالِ يُــؤدِّبُ

من قول الإمام عليّ كرّم الله وجهه من [الطويل]:(٢)

وَمَـنْ يَـأْمَنِ الـدُّنْيَا يَكُـنْ مِثْـلَ قَـابِضٍ عَلَـى الْمَـاءِ خَانَتْـهُ فُـرُوجُ الأَصَـابِعِ

ولم يكتف الشاعر في تناصه مع هذا البيت في الفكرة فحسب، والمتمثلة في الجانب السلبي للدهر أو الدنيا، بل أضاف إليها معنىً آخر إيجابياً، وهو أن الدهر يمنح الفتى أو الرجل مزيداً من الخبرات والتجارب التي يستعين بها على قابل الأيام ومشاكلها.

ويتبين مما تقدم أن الشاعر يحسن استمداد الأفكار والمعاني من غيره من الشعراء، ولكنه – في الوقت نفسه – يحاول تعزيزها بما يمنحها من رؤية ذات دلالات وإيحاءات أكثر سعة، ويدخلها في سياقات شعرية جديدة تنسجم وتتناغم مع وجهة نظره.

(١) لبيد بن ربيعة العامري، ديوانه، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ص٨٩.

(٢) علي بن أبي طالب، ديوانه، جمعه وضبطه، نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ص١٢٣.

الخاتمة:

وفي ختام هذا البحث يمكننا التأكيد على أن التناص الداخلي في قصيدة ابن عبد القدوس الموسومة بـ "الزينبية" كان استجابة لدوافع التجربة الشعرية والشعورية، وأن هذا التناص كذلك قد اعتمد على مخزون ثقافي وديني وأدبي. فالشاعر عندما يستحضر معنى أو فكرة، يعرضها في ثوب جديد، ورؤية مغايرة، ولا يكررها أو يعيدها كما هي. لقد كان تفاعله مع النصوص الدينية والأدبية الغائبة دافعاً قوياً لتخصيب نصه الجديد، وانفتاحه على مزيد من القراءات التي تحمل دلالات وإيحاءات جديدة، علاوة على أن هذه التناصات كان لها دور فاعل ومؤثر في التأثير في المتلقي، وزيادة درجة إقناعه، وتأكيد الفكرة في ذهنه.

المراجع

ابن آيبك الصفدي، صلاح الدين خليل (ت ٧٦٤هـ)، نكت الهميان في نكت العميان، وقف على طبعه، أحمد زكي بك، المطبعة الجمالية، القاهرة، ط١، ١٩١١م.

البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

الأسود بن يعفر، ديوانه، صنعه، نوري حمودي القيسي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، (د.ط)، (د.ت).

الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ط٣، ١٩٨٨م.

امرؤ القيس، ديوانه، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٤، (د.ت).

الخطيب البغدادي، أبو بكر، أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ)، تاريخ بغداد، تحقيق، بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

الخطيب، عبد الله، صالح بن عبد القدوس البصري، حياته وشعره (تأليف وجمع وتحقيق)، دار منشورات البصري، بغداد، ط١، ١٩٦٧م.

الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الكريم العزباوي، مراجعة: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ط١، ١٩٧٩م.

الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٨٦م.

الزعبي، أحمد، التناص نظرياً وتطبيقياً، مكتبة الكتاني، إربد، ط١، ١٩٩٥م.

الزمخشري، أبو القاسم، محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ)، أساس البلاغة، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٧٩م.

ابن زهير، كعب (ت ٢٦هـ)، ديوانه، تحقيق، درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.

الزواهرة، ظاهر محمد، التناص في الشعر العربي المعاصر، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمّان، ط١، ٢٠٠٠م.

سلامة بن جندل، ديوانه، تحقيق، فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.

(١) عدي بن زيد العبادي، ديوانه، تحقيق، محمد جبار المعيبد، وزارة الثقافة والإرشاد، بغداد، ط١، ١٩٦٥م.

(٢) علقمة الفحل، ديوانه، شرح، السيد أحمد صقر، المطبعة المحمودية، القاهرة، ط١، ١٩٣٥م.

علي بن أبي طالـــب، ديوانـــه، جمعه وضبطـــه، نعـــيم زرزور، دار الكتب العلمـــية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

أبو عيسى، محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٩٧هـ)، سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، تحقيق، إبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط١، ١٩٦٢م.

الغذامي، عبد الله، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية – قراءة نقدية لنموذج معاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٤، ١٩٩٨م.

الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ)، القاموس المحيط، تحقيق، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٨، ٢٠٠٥م.

لبيد بن ربيعة العامري، ديوانه، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

مجمع اللغة العربية (القاهرة)، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٤م.

مسلم، أبو الحسين، بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، صحيح مسلم، اعتنى به، نظر محمد الفاريابي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ٢٠٠٦م.

مفتاح، محمد، المفاهيم والمعالم، نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٢، ٢٠١٠م.

المفضل الضبي، محمد بن يعلى (ت ١٧٨هـ)، المفضليات، شرح وتحقيق، أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٦، (د.ت).

ابن منظور، محمد بن مكرَّم (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

الموسى، خليل، التناص والإجناسية في النص الشعري، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع(٣٠٥)، أيلول، ١٩٩٦م.

الناصر، مازن طلال، المنظومات التعليمية في الشعر العبسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، منشورات شركة دار الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمّان، ط١، ٢٠١٦م.

النسائي، أبو عبد الرحمن بن شعيب (ت ٣٠٣هـ)، سنن النسائي (المجتبى)، خرج أحاديثه وعلق عليه، عماد الطيار وآخرون، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠١٤م.